مجلة تاريخ المغرب العربي
EISSN 2600-657X
ISSN : 2478-0154

المجلد 10 / العـــدد: 02 (2026)، ص 09- 24

التماثل والاختلاف في تاريخ الجزائريين فراي دييغو هايدو ولوجيي دي تاسي

: *Symmetry and difference in Algeria's history Between Fray Diego Haëdo and Laugier De Tassy.*

د.مُحَمَّد دراعو *	الاسم الكامل للمؤلف الثاني
المركز الوطني للدراسات والبحث في المقاومة الشعبية والحركة الوطنية وتاريخ أول نوفمبر 1954	مؤسسة الانتماء (البلد)
pctowntlm@gmail.com	البريد الالكتروني

تاريخ الاستلام: 2025/12/10 **تاريخ القبول: 27/ 12/ 2025**

الملخص: نحاول ضمن هذه الدّراسة التعرض لأبرز أوجه التشابه والاختلاف التي أرَّختها كتابات هايدو ودي تاسي في وصف السكان حكاما ومحكومين وطبيعة البلد، وكيف كانت المنطقة عامل استقرار للإنسان بها قديما وحديثا سواء بالأرياف أو المدن، وعلى تنوع وظائفها الفلاحية والتجارية والتعليمية والعادات والتقاليد التي تحكم المجتمع وتأثر فيه سلبا وايجابا. وتمكننا هذه المقابلة باستجلاء كثير من الحقائق ظلت حبيسة تصورات قائمة على الغلط، يلوكها الأوروبيون إلى عهد الاستعمار الفرنسي.

والإشكالية الرئيسية المطروحة تعالج أوجه التماثل والاختلاف في توصيف تاريخ الجزائر بين هايدو ودي تاسي محاولين دراستها ضمن هذه المحاور :المجتمع والسلطة في كتاباتهم الريادة الفلاحية والتجارية للجزائر الصور النمطية لمحاسن ومساوئ مسلمي الجزائر والتعامل معها

كلمات مفتاحية: التّماثل، الاختلاف، تاريخ الجزائر، فراي ديغو، هايدو لوجي، دي تاسي.

Résumé

Dans cette étude, nous nous proposons d'examiner les principaux points de convergence et de divergence mis en évidence par les écrits de Haëdo et de De Tassy dans leur description des populations, qu'elles soient gouvernantes ou gouvernées, ainsi que de la nature du pays. L'analyse met en lumière le rôle de la région comme facteur de stabilité humaine, tant dans le passé que dans les périodes plus récentes, aussi bien en milieu rural qu'urbain. Elle souligne également la diversité de ses fonctions agricoles, commerciales et éducatives, ainsi que l'ensemble des us et coutumes qui régissent la société, en l'influençant de manière tant positive que négative. Cette confrontation des sources permet de révéler de nombreuses réalités historiques longtemps enfermées dans des représentations erronées, largement diffusées par les Européens jusqu'à l'époque de la colonisation française.

La problématique principale de cette recherche porte sur l'analyse des similarités et des différences dans la représentation de l'histoire de l'Algérie chez Haëdo et De Tassy. Cette étude s'articule autour des axes suivants : la société et le pouvoir dans leurs écrits, le rôle pionnier de l'Algérie dans les domaines agricole et commercial, les stéréotypes associés aux qualités et aux défauts attribués aux musulmans d'Algérie, ainsi que les modalités de leur construction et de leur diffusion.

* محمّد دراعو

Mots-clés : Similitude, différence, histoire de l'Algérie, Fray Diego Haëdo, Laugier De Tassy.

Abstract

This study aims to examine the main similarities and differences highlighted in the writings of Haëdo and De Tassy regarding their portrayal of the population, both rulers and subjects, as well as the nature of the country. The analysis emphasizes the role of the region as a factor of human stability, in both ancient and modern times, across rural and urban settings. It also sheds light on the diversity of its agricultural, commercial, and educational functions, along with the customs and traditions that govern society and influence it both positively and negatively. This comparative approach enables the uncovering of numerous historical realities that remained confined within misconceptions, widely perpetuated by European narratives up until the period of French colonization.

The main research question addresses the points of convergence and divergence in the depiction of Algerian history by Haëdo and De Tassy. The study is structured around the following themes: Society and authority in their writings, Algeria's pioneering role in agriculture and trade, Stereotypical representations of the virtues and shortcomings attributed to algerian muslims and the ways in which these images were constructed and disseminated.

Keywords: Similarity, difference, history of Algeria, Fray Diego Haëdo, Laugier De Tassy.

مجلة تاريخ المغرب العربي
EISSN 2600-657X
ISSN : 2478-0154
المجلد 10 / العـــدد: 02 (2026)، ص 09- 24

- **مقدمة:**

إن تاريخ الجزائر قديما وحديثا لازال مثار أراء الكتاب الأوروبيين عموما، كانت فترة مطلع القرن السادس عشر قد شهدت تحولا كبيرا وصعودا لقوتين جديدتين وهما الإمبراطوريتان العثمانية والإسبانية وصراعا بحريا قويا بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، لعبت الجزائر فيه أدوارا طلائعية على المستوى العسكري، السياسي والاقتصادي، وقد مهدت عدة كتابات مهمة الإكتشاف العلمي للجزائر وإفريقيا عموما لمجموعة من المؤرخين أمثال حسن الوزان (ليون الإفريقي)، ومرمول كرباخال.

وعلى نسق هؤلاء تأتي كتابات الإسباني فراي دييغو هايدو والهولندي لوجيي دي تاسي، حيث تكمن أهميتها في كونها من أولى كتابات الأوروبيين التي سجلت أحداث الجزائر وعلى فترات متباينة ومواكبة للوجود العثماني بالجزائر. هايدو في المنتصف الثاني من القرن السادس عشر ومؤلفاته الثلاث: الأسر في الجزائر، تاريخ ملوك الجزائر، وأخيرا طبوغرافيا والتاريخ العام للجزائر، ترجمت من الإسبانية إلى الفرنسية لكل على التوالي من مولينر فوال للأول، دي غرا مونت للثاني، والأخير للثنائي مونرو وبيربروجير. دي تاسي في النصف الأول من القرن الثامن عشر، ومؤلفه تاريخ مملكة الجزائر، نحاول ضمن هذه الدّراسة التعرض لأبرز أوجه التشابه والاختلاف التي أرَّختها كتاباتهم في وصف السكان حكاما ومحكومين وطبيعة البلد، وكيف كانت المنطقة عامل استقرار للإنسان بها قديما وحديثا سواء بالأرياف أو المدن، وعلى تنوع وظائفها الفلاحية والتجارية والتعليمية والعادات والتقاليد التي تحكم المجتمع وتأثر فيه سلبا وايجابا. وتمكننا هذه المقابلة باستجلاء كثير من الحقائق ظلت حبيسة تصورات قائمة على الغلط، يلوكها الأوروبيون إلى عهد الاستعمار الفرنسي. والإشكالية الرئيسية المطروحة تعالج أوجه التماثل والاختلاف في توصيف تاريخ الجزائر بين هايدو ودي تاسي محاولين دراستها ضمن هذه المحاور: المجتمع والسلطة في كتاباتهم الريادة الفلاحية والتجارية للجزائر الصور النمطية لمحاسن ومساوئ مسلمي الجزائر والتعامل معها

مؤلف هايدو يهديه إلى عمه حاكم صقيلية باسم الملك الإسباني فليب الثاني سنة 1612، اعتبره الديوان الملكي "كنزا علميا" لفوائده الجمة للمسيحية. ومصدر ا مهما وأساسيا لكل من يهتم بتاريخ الجزائر، إعتمد على سرد أحداثه من شهود عيان وأحيانا كان هو شاهدا عليها كونه أسر بالجزائر ما بين (1578-1581).(دي تاسي الذي شغل منصب محافظ البحرية للتاج الهولندي، يستهله بأن الحرب الهولندية الجزائرية كانت مادة هذه النقاشات هنا، فهو يكتب كشاهد عيان ومن أرض الواقع، وكذا من بعض المذكرات لمسيحيين بالجزائر ويهدي مؤلفه إلى القنصل الفرنسي بالجزائر دوراند دي بونال Durand de Bonnel سنة 1724، والذي تجمعه به علاقة طيبة ويقدره كثيرا.

1.التماثل والاختلاف في خصوصية المجتمع وطبيعة نظام الحكم :

هايدو في موجزه الذي أورده عن تاريخ البلاد يصل إلى نتيجة مفادها أن المنطقة كانت عامل استقرار للإنسان بها قديما وحديثا نظرا لخصوبة أراضيها، وسهولها الواسعة والينابيع الوفيرة. في حين يصف دخول المسلمين الفاتحين إلى إفريقيا وتعريب المنطقة بالوباء أو الطاعون، لينتقده المترجم بيربروجير على ما أسماه هايدو بالوباء أن علماء الإسلام هم من حفظوا ميراث العلوم القديمة لليونان والرومان وأثْرَوها كثيرا، وظلت الأعمال الخالدة لمنارات العلم أمثال الرازي، ابن سينا، وابن رشد، ولعدة قرون، وأصبحت من أساسيات التعليم في أوروبا[1].

وإن كان عمل هايدو الضخم تنوع في موضوعاته واهتماماته إلا أنه تمحور حول ثلاث محاور (الأسر، الشهداء، المرابطين) أسر المسحيين من طرف الجزائريين، موتهم شهداء ودور رجال الدين في استخلاصهم، وإن كان أبو القاسم سعد الله يذكر **"ودور رجال الدين المسلمين في الجهاد"** وينقله عن مؤلف انجليزي قديم (الكامل في تاريخ الجزائر) سنة 1731 لجوزيف مورقان[2]. في توصيف السكان لدى هايدو باستثناء طائفة الحضر والأندلسيين وأغلبهم بالمدن يمتلكون مهارات مهنية وحرفية وتجارية، لها أهميتها ومركزها الاجتماعي، في حين يصف العرب الذين يسكنون الأرياف في الخيام بأقذر الأوصاف حتى أنه يتساءل في الأخير هل هؤلاء العرب أنفسهم الذين فتحوا إفريقيا وإسبانيا؟، وعقب بيربروجير بإن هايدو غير منصف وغلبت عليه حماسته القومية المفرطة[3].

ويتوافق دي تاسي مع هايدو في توصيف الأندلسيين بأنهم مهرة في عدة حرف، زاد نفوذهم بالمشاركة في الخرجات البحرية، وتجارة العبيد، فحازوا حظا وافرا عن أهل البلد إذ أصبحوا رديف الحكم العثماني بالجزائر [4]. خصوصا بالمدن الساحلية مثل عنابة، جيجل، بجاية، الجزائر، وهران، مستغانم، تنس، شرشال أو بعض المدن التاريخية الداخلية مثل قسنطينة وتلمسان، لكن أغلبية الشعب تسكن الخيام بالأرياف [5]. هم عموم العرب، ينتظمون ضمن قبائل يرأسهم شيخ القبيلة ويحكمها كجمهورية مستقلة، حافظوا على حريتهم، وبكل جهد وعناية عمروا وزرعوا هذه البلاد، ويثني دي تاسي على عرب الصحراء بالخصوص، (أولاد نايل، بسكرة، الواد، تقرت) بأن لهم مهارة كبيرة في ترويض "الخيول العربية" واستخدامها، ولا تدانيها أية خيول أخرى جمالا ورشاقة وسرعة[6].

لا يشذ هايدو عن أهل عصره في الكتابة بالعودة إلى العصور السحيقة بل إلى بداية الخليقة ليتدَرَّج صعودا إلى العهد الحالي مستحضرا شواهد للرق منذ عهد النمرود الذي أحدث في العالم الاسترقاق بجبروته وطغيانه، ولم تسلم منه أية أمة من الأمم: اليونان، الفرس، الرومان، لكنه يعقب على ذلك لم يكن قاسيا بهذا القدر إلا من طرف برابرة هذا البلد[7].

---

[1] Fray Diego Haëdo : **Topographie et Histoire Générale d'Alger**, Traduction de A. Berbrugger, & Monnereau, Adolphe Jourdan**,** Alger, 1870, pp 14-16.

[2] أبو القاسم سعد الله : **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، المجلد 1، عالم المعرفة، الجزائر، 2016، ص315.

[3] Fray Diego Haëdo : **Topographie et Histoire Générale d'Alger**, op cit, pp 45-46.

[4] Laugier De Tassy : **Histoire du Royaume d'Alger**, Henri du Sauzet, Amsterdam, 1724, p 67.

[5] Ibid, p126.

[6] Ibid, pp 55,68-73.

[7] Fray Diego Haëdo : **De la captivité à Alger, traduction de Moliner-Violle**, Typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1911, pp 61-64.

هؤلاء السكان حسب هايدو يعطفون حتى على الحيوانات، لكن عاطفتهم اتجاه المسيحي الذي يفنى في خدمتهم لما يَمْرض أو يُشرف على الموت يتركونه لحاله كأنه موبوء أو ملعون يلقى حتف أنفه [1]. فهايدو يجعل من الجزائر كل الجزائر: ساحاتها، منازلها، شوارعها، مداشرها، موانئها، سفنها، لا تمثل شيئا سوى أوكارا للشياطين حيث يبدعون في وسائل متنوعة ومتعددة للتعذيب والعقاب الشديد هدفها قتل أكبر عدد من المسيحيين[2] . فكل ما يجعل من الإنسان حكيما وعقلانيا مفقودة في عادات وتقاليد الجزائريين، تفكيرهم، طباعهم، طريقة عيشهم والقوانين المطبقة كلها مختلفة.[3]

غير أن دي تاسي عكس هايدو يقول: مما لا جدال ولا نقاش فيه أن الطيش والسيرة السيئة للعبيد هي من تجلب عليهم المعاملة السيئة من أسيادهم، ومن يعيش في وقار وطاعة وإخلاص ووفاء لسيده، يلقى كل التكريم والتقدير والعناية[4].

بل يذهب دي تاسي بعيدا حين يدلل على أن إجبار المسيحيين على اعتناق الإسلام غير صحيح لسبب بسيط أن أسيادهم يُحَرِمون من الفدية لما تصل الجزائر، والحصول على الفدية هو السبب الذي يجعل الجزائريين يشترون هؤلاء العبيد. هناك حالات فقط يكون فيها الداي مجبرا على انقاد رأس مسيحي محكوم عليه بالإعدام بإعطائه فرصة الدخول في الإسلام ما لم تكن التهمة ضد الدولة، كون هذه التهمة لا تنقذ أحدا مهما كانت ديانته أو جنسيته. لكن حالات أخرى لعبيد حديثي السن (أقل من اثني عشر سنة) يسعى أسيادهم خصوصا الأغنياء بجعلهم مسلمين قربى لله ويربون تربية حسنة ويتبنونهم كأبنائهم، لكن عبيد سن المعرفة (خمسة عشرة إلى سبعة عشرة سنة) فإن أسيادهم يمنعونهم من تغيير دينهم، فبإسلامهم يصبحون أحرارا، ويفوتون على أسيادهم فرصة الحصول على الفدية.[5]

وما يمكن ملاحظته في كتاب الأسر في الجزائر لهايدو يعرضه على شكل حوار لأسير في محبسه وظروف اعتقاله السيئة لدى سجان دينه الدرهم فهو وحش في أفعاله وكل عاداته، والأسرى المسيحيين مقيدين، بدون ملابس، لا نعال، جياع، هزالى، مسكونين بخوفهم وحزنهم، ينامون على الأرض مكبلين بسلاسل مشدودة إلى كرة حديدية ومع ذلك يعملون كل يوم، بل كل ساعة دون انقطاع، فالأسر في الجزائر "قاس، مؤلم، عنيف ولم يوجد مثله أبدا".[6] وهم مع كل هذا–أي الأسرى–يتلقون أشد العذاب بقتلهم أو تقطيع أنوفهم وآذانهم، حرقهم، إعدامهم بإدخال خازوق من أسفلهم، دفنهم أحياء، تقطيعهم إربا ورميهم للكلاب.[7] دي تاسي في تصدير كتابه يورد أن الأحكام المسبقة لأغلب المسيحيين تكون قاسية اتجاه الأتراك والمسلمين عموما. عادة ما تكون من بعض القسيسين الإسبان الذين يخلقون آلاف القصص الخرافية. لإضفاء قيمة على خدماتهم لصالح شعوبهم المسيحية، في سبيل فدية العبيد برسم صورة نمطية خيالية عن أسرى مقيدين في السلاسل مسخرين في كل الأعمال وهذا ما لم يحدث في إفريقيا. ولكنها استعملت من هؤلاء القساوسة كصكوك غفران للظفر بأموال المسيحيين لتخليص أسراهم، يحصلون عليهم في أحايين كثيرة بالمجان.[8]

---

[1] Fray Diego Haëdo : **De la captivité à Alger**, op cit, pp 111-112.
[2] Ibid, pp 134-135.
[3] Ibid, p 142.
[4] Laugier De Tassy : op cit, p 280.
[5] Ibid, pp 86-87.
[6] Fray Diego Haëdo : **De la captivité à Alger**, op cit, pp 9-12.
[7] Ibid, p131.
[8] Laugier De Tassy : op cit, pp 1-3.

وهو ما أورده أبو القاسم سعد الله عن جوزيف مورقان صاحب كتاب (الكامل في تاريخ الجزائر سنة 1731) الذي ينقد هايدو ومن سار على دربه، بأنهم كانوا مدفوعين بروح الجهل والحقد الديني، وأنهم يستعملون ضد الجزائريين خاصة والمسلمين عامة عبارات جارحة قاسية متأثرين بأقوال ودعايات الكهنة الإسبان المغرضين الذين كانوا يشيعون آلاف الحكايات الخرافية لكي يحصلوا على المساعدات المالية والسياسية لتخليص الأسرى المسيحيين من أيدي المسلمين[1].

وعن فعل "القرصنة" الذي ينسب للجزائريين بجعل المسيحيين عبيد، حسب دي تاسي يشترك فيه الجميع ويتساءل، ماذا فعل أمراء المسيحيين في الحرب؟ ألم يدخل نظام مالطا بسبب ديني في حرب مفتوحة مع المسلمين؟ ألم يقسم فُرسانُه على عدم عقد سلم مع المسلمين؟ كمثال صارخ عن اجتثاث الإسلام والمسلمين من تلك الديار ظلت إسلامية ردحا من الزمن. فأي حق يكون للأوروبيين تجييش الجيوش لشعوب لم تهاجمنا أبدا بل ولا نعرفها، أبيدت وأفنيت بلا إنسانية ولا رحمة كما حصل في غزو الإسبان للبيرو وأي عار لحق المسيحيين.[2]ويعطينا راينال نموذجا "للقرصنة الأوروبية" في بحر الشمال –بحر البلطيق–تتحكم فيه إمبراطورية بحرية تشبه القرطاجيين قديما تعرف بالرابطة الهانزية"Ligue Hanséatique" ضمت ثمانين مدينة تُدفع لها إتاوات مقابل الحركة البحرية وقد بلغت أوجها في القرن الخامس عشر[3].

وفي توصيف البيئة يجعلها هايدو عاملا في صناعة الإنسان المتوحش المفترس، فإفريقيا معروفة بحرارتها وكذا حيواناتها المفترسة، والمثل الدارج "إفريقيا تنتج دائما بعض الوحوش" وأن هذه الشعوب شبَّت على بيئتها البربرية، القاسية والمتوحشة، في حين يغدق على شعوب آسيا وأوروبا بأنها تعيش في سلام[4].غير أن دي تاسي يتعرض للسياق التاريخي لمصطلح البربر والبربرية (Barbares ou Barbaresques، (Barbarieوالذي التصق بهذه القطعة من افريقيا والتي ظلت في مفهومنا –الأوروبي–تنطوي على كل ما هو وحشي، جور، ضد كل الشرائع وضد الطبيعة، بل هو غول إفريقي وسلوكه لا يختلف عن الحيوانات المفترسة. فهي حسب مرمول كارباخال تأتي من كلمة العرب "بر "Ber" "تعني قفر الصحراء ومنها اشتقت كلمة "Berberie" وبمرور الزمن أصبحت ."Barbarie"في حين المؤرخ القديم ليون الإفريقي يقول أن العرب سمَّوا الأفارقة البربر البيض"Blanc Barbares" ، ونجدها عند الرومان كلمة "Barbares" تطلق على كل الشعوب الأجنبية، لذا تجد عندهم مصطلح "barbare et Etranger" لها نفس المعنى، حيث تكون العادات والتقاليد مختلفة، وقد عمد الرومان لإطلاق هذا النعت على سكان هذه المناطق من إفريقيا والتي كانت تسمى موريتانيا للتمييز، فقد كانوا من أشد الشعوب التي واجهها الرومان[5].

وحسب أبو القاسم سعد الله البربر ليسوا جنسا أو أمة خاصة وأن العبارة في حد ذاتها لا تعني شرفا يعتزون به ولا حضارة ينتمون إليها بل تعني الضِّعة والمرتبة الدنيا بالقياس إلى الرومان الذين كانوا يَعتبرون أنفسهم ممتازين، ليتساءل كيف تخلص منها الأوروبيون

[1] سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ص316.

[2] Laugier De Tassy : op cit, pp 327-328.

[3] Guillaume-Thomas Raynal : **Histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des Européens dans l'Afrique**, T 1, AmableCostes libraire-éditeur, Paris, 1826, p92.

[4] Fray Diego Haëdo : **De la captivité à Alger**, op cit, pp 139-140.

[5] Laugier De Tassy, op cit, pp 1-3.

الذين وصفوا بها فأصبحوا "ألمانا" و"فرنسيين" ونحو ذلك، وتخلص منها الشرقيون فأصبحوا "فرسا" و"هنودا" و"مصريين" ونحو ذلك، ولكنها لماذا لصقت بأهالي شمال إفريقية حتى كأنها ظلت علما عليهم؟[1]

أما المعارف والتعليم فيجمع هايدو ودي تاسي على عدم وجود كثيرا من العلوم مثل المنطق، الفلسفة، الميتافيزيقيا، الهندسة، الفلك وعدة فنون أخرى، وهذا الأمر يصدق على العالم الإسلامي بأسره، ولا وجود في كل الجزائر لطبيب واحد، وكل الجراحين هم مسيحيين.[2] وحسب دي تاسي التعليم تقليدي يرتكز بالأساس على تعليم الأطفال القراءة والكتابة، ولا وجود لطبيب في كل مملكة الجزائر، لكن الناس يكبرون ويشيخون وهم في صحة جيدة وفتوة[3].

ويسرد هايدو في كتابه تاريخ ملوك الجزائر عن نشأة السلطة العثمانية بالجزائر سيرة ثلاثين (30) حاكما بدءا بالإخوة بربروس عروج وأخيه خير الدين. اللذان كانا ينشطان في البحر الأبيض المتوسط وسرعان ما بدأ اسمهم يلمع في عالم البحار، إذ سنة 1504 كان لهم أول موطئ قدم بغرب المتوسط بتونس "حلق الوادي"، لتبدأ أولى إغارتهم الناجحة على سفن البابا والملك الإسباني، فكان لهذه الأحداث صدى واسعا في وسط العالم المسيحي[4].عن نظام الحكم يتوافق هايدو ودي تاسي أن الجزائر كانت جمهورية عسكرية، يعين رئيسها بالانتخاب، إلا أن لها صبغة مملكة لتمركز السلطات في يد الداي. والواقع أنها جمعت بين الصبغة المدنية والعسكرية، تتجلى الأولى في أن حاكم الإيالة كان دائما يلجأ إلى العلماء لحل المشاكل العويصة، ولا يستطيع مخالفتهم في شيء. وأما الصبغة العسكرية، فتتمثل في الديوان والذي يتكون من العسكريين فقط من بيده الحل والعقد،[5] ولم تتمكن السلطة العثمانية بالجزائر طيلة أربعة عشرة سنة من فرض وجودها، حيث ظلت أوضاع البلاد تترنح من جهة قوة الإسبان وتعذر إخضاع بعض المناطق من البلاد إذ دفع عروج حياته ثمن تحرير تلمسان في كمين نصبه الإسبان (قائد حامية وهران) له وهو عائد منها إلى الجزائر سنة 1518[6].

انطلاقا من هذا الوضع المعقد بعد مقتل عروج، لم يكن أمام خير الدين سوى الكتابة إلى السلطان العثماني لإلحاق البلاد كليا بالباب العالي وطلب معونة عسكرية. وهكذا استطاع خير الدين في ظرف إثني عشرة سنة تحرير معظم السواحل، وجولات في عرض البحر لعدة رياس كبار أمثال صالح رايس، شعبان رايس استطاعوا إنقاذ كثير من مسلمي الأندلس،[7]لكن سياق دي تاسي نوعا ما مختلف ويُدخل كثيرا من الأقاصيص والمغامرات الخيالية "Aventure et historiettes" لا يستطيع هو أن يجزم بصحتها، ملخصها أن عروج قضى على سليم التومي ليكون الحاكم الفعلي للجزائر وكذلك طمعا في أرملته السيدة زفيرة التي أرادها لنفسه غصبا عنها.[8] فنجده في عرضه لموجز تاريخي عن الجزائر منذ عهد الرومان إلى الفتح الإسلامي أفرد له عشر صفحات، في حين لتلك القصة

---

[1] سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ص ص 6-7.

[2] Fray Diego Haëdo : **Topographie et Histoire Générale d'Alger**, op cit, p 157.

[3] Laugier De Tassy : op cit, pp 119-120, 125-126.

[4] Fray Diego Haëdo : **Histoire des rois d'Alger**, traduite et annotée par H. -D. de Grammont, Adolphe Jourdan, Alger, 1881, pp3-8.

[5] محمد العربي الزبيري : **مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث**، دار الحكمة، الجزائر، 2014، ص 64 وما بعدها.

[6] Fray Diego Haëdo : **Histoire des rois d'Alger**, op cit, pp 25-33.

[7] Ibid, pp 35-40.

[8] Laugier De Tassy : op cit, pp 11-31.

الخيالية يخصص أكثر من عشرين صفحة. ويستمر دي تاسي على هذا المنوال، فلم تكن تلك العاصفة القوية التي ضربت أسطول شارلكان في حملته على الجزائر سنة 1541 إلا استجابة لبشارة أحد الدراويش السود للجنود والديوان، بتمام بدر هذه الليلة ستتجلى قدرة الله في الكفار بغرق سفن الأعداء، وتلقى عنها مكافئة كبيرة، أو لدعاء أحد المرابطين الذي أُلْهِم بضرب البحر بعصاه فارتج له البحر.[1] ونجد مثلا رونودوت يسير على هذا المنوال "... **الأولياء الصالحين كانت لهم يد في الكارثة التي حلت على رأس جيش الامبراطور**".[2]

دي تاسي يسرد نفس وقائع ذكرها هايدو فيما يخص الاستلاء على تلمسان وحصن البانيون ومقتل عروج وكذلك رفض العرب للوجود العثماني بالجزائر وأن دخولهم في جيش بربروس لم يكن إلا من أجل الغنائم[3].عن حملة شارلكان على الجزائر سنة 1541 دي تاسي يقول إنه أراد أن يخلِّد اسمه بجعل هذه الأراضي الإفريقية مسيحية، وبدعم كامل من الأمم المسيحية وبتوصية من البابا نفسه، لكن تعداد القوة العسكرية فيها فارق كبير بين دي تاسي وهايدو في حين يذكر الأخير 516 سفينة يذكر الأول 120 سفينة فقط[4].فإذا أخذنا بالحسبان خروج الإمبراطور بنفسه على رأس هذه الحملة وجميع الإمارات التابعة له ودعم الكنيسة فلا يعقل أن يكون كل هؤلاء جمعوا 120 سفينة فقط في حين أن أندري دوريا André Doria الذي كان تابعا للإمبراطور الإسباني ويخوض معارك باسمه عادة ما يكون تعداد أسطوله مائة سفينة أو أكثر

.ثم يعرج هايدو على الصراعات التي ظلت خفية لعدة سنوات لكن طفت إلى السطح بين فئة رياس البحر والجيش الإنكشاري، فقد كان هذا الأخير يريد المساهمة في الجهاد البحري وبالضرورة في الغنائم، بحكم أنه يقوم بعمليات داخل البلاد لتحصيل الضرائب، غير أن الرياس رفضوا ذلك إطلاقا، ومن هنا بدأ طابع الصراعات التي سيميز الحكم العثماني في الجزائر إلى آخر عهده[5].هذا الصراع في أعلى هرم السلطة جعل دي تاسي يصف حياة الدَّاي بأنه لا يخرج من قصره إلا نادرا، فهو عبد للعبيد يمشي دائما على الأشواك، في حذر متواصل، مشغول دائما بكشف المؤامرات، وفي قتل كل من يتهمه أو يشتبه به وأحيانا بدون وجه حق، فقط من أجل أن يكون عبرة للآخرين[6].

يلتقي دي تاسي وهايدو على أن ضعف المجتمع العربي والمور عموما نتيجة الصراعات البينية مكن الأتراك من السيطرة عليهم، وأنه إن لم يضع الباب العالي حدا للتجاوزات لتفاقم الصراع جراء تصرفات الباشوات في مقدرات البلاد ومنها أجور الجند، فقد يستنجدون بالمسيحيين ليقولها صراحة: "مملكة الجزائر تواجه خطر الدخول تحت هيمنة جديدة".[7] والواضح أن هذه الكتابات روَّجت لحكم الأجنبي بالقوة، أما حكم أنفسهم بأنفسهم فهو غير وارد أصلا.

---

[1] Laugier De Tassy : op cit, pp 45-47.
[2] M. Renaudot : **Alger. Tableau du royaume, de la ville d'Alger et de ses environs**, 4ème éd, Librairie Universelle de P. Mongie Ainé, Paris,1830, p X.
[3] Laugier De Tassy : op cit, pp 33-38.
[4] Ibid, p 43.
[5] Fray Diego Haëdo : **Histoire des rois d'Alger**, op cit, p 101.
[6] Laugier De Tassy : op cit, p 219.
[7] Ibid, pp 50-51, 259.

ومن بين حكام الجزائر الذين كانت لهم بصمة على الحياة السياسية والاقتصادية، يفرد هايدو سيرة مطولة للباشا علج علي الذي أثبت جدارة كبيرة في المعارك البحرية، خصوصا معركة ليبانت سنة 1571 والتي أظهر فيها مع الجزائريين حنكة ومهارة خصوصا في مواجهة فرسان مالطا.[1] وتذكر بعض المصادر أن شهرة وحنكة علج علي جعلت البابا يشير على الملك الإسباني فليب الثاني أن يبحث عن وسيلة يجذب بها علج علي إلى صفه بمنحه امارة جيدة بإسبانيا أو صقيلية ومع ذلك بقي وفيّا لقِيَمه وولائه للباب العالي.[2] ويمثل علج علي نموذج "الأتراك بالوظيفة" وهم المسحيون الذين اعتنقوا الإسلام وأصبح بأيديهم السلطة الفعلية بالجزائر والعدو اللذوذ للاسم المسيحي[3].

مقاربة النصر في معارك الجزائريين لدى هايدو مبنية على الطائفة المسيحية سواء لمسيحين أوروبيين أسلموا، عرفت لدى المسلمين بالعلج ويسميهم هايدو "Renégats"مرتدين أو منشقين عن الدين المسيحي، أو لأسرى أوروبيين كانت لهم بصمة في الفارق الاستراتيجي للجيش الجزائري. لا من حيث التنظيم، قوة المواجهة، إحراز النصر، وتجد في الإطراء مثلا على علج علي وأضرابه كونهم سليل هذه الطائفة. حسب دي تاسي كل الأتراك ضمن الطائفة العسكرية سواء بالأصل أو الوظيفة، مستأثرون بحكم البلد لأنفسهم دون غيرهم، لهم القوة والسيادة وليس لهم جذور بهذه البلاد، ويكفيهم لقب عسكري يستندون عليه في حكمهم. ليعقب دي تاسي على الوضع "تستغرب بل تجد الأمر مستحيلا حيث أن مئتين من المور والعرب يقابلهم تركي واحد وله كل السيطرة يعني أن حفنة تحكم الأغلبية ولا يبذلون أي جهد لتغيير الوضع، والأتراك في العادة من الطبقات الدنيا في المجتمع، تعليم محدود، فقر، حرمان ومنهم الجناة، يتأسَّون بأناس سبقوهم أتوا إلى الجزائر معدمين، حالفهم الحظ بقليل من الذكاء والفطنة أصبحوا في مراكز هامة في الدولة ومنهم من حاز منصب الداي نفسه[4].

ونفس الملاحظة يطرحها رونودوت في موجزه التاريخي بتساؤل عن هذا الشعب الذي عُرف بشجاعته وشكيمته وبأسه الشديد في مواجهة الرومان، وصل إلى هذه الحالة من الضعف، ليعلل ذلك بأن سكان الجزائر يجهلون تاريخ بلادهم وأجدادهم.[5] لكن فانتور دي بارادي يعطي بعض الإجابات حيث يقول "... **استطاعت الحكومة كسب الرهان بإثارة القبائل فيما بينها والمور يدفعون الثمن من دمائهم، في مجتمع يجعل من الانتقام حقا متوارثا لا يتخلى عنه**"[6].

باشر هايدو مسألة التقاضي أنه يتم دون اعتراض أو استئناف والأحكام سيادية، لكن لدى الإنكشارية يجب احترام التراتبية العسكرية في التقاضي.[7] وعلى نفس المنوال وثَّقه دي تاسي إذ يسير بطريقة غير معهودة، لدرجة أنك تجد من أعلى منصب في الدولة إلى أبسط عبد فيها يحمل قضيته المدنية والجنائية أمام الداي نفسه ويرافع عنها دون مُحامٍ ودون عرائض، ولا نائب عام، ولا مدعين،

---

[1] Fray Diego Haëdo : **Histoire des rois d'Alger**, op cit, pp 146-147.
[2] Ibid,p 148.
[3] Fray Diego Haëdo : **Topographie et Histoire Générale d'Alger**, op cit, pp 48-50.
[4] Laugier De Tassy : op cit, pp 78, 205.
[5] M. Renaudot : **Alger. Tableau du royaume, de la ville d'Alger et de ses environs**, op cit, p5.
[6] Jean-Michel Venture de Paradis : **Alger au XVIIIe siècle**, édité par E. Fagnan, Typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1898, p12.
[7] Fray Diego Haëdo : **Topographie et Histoire Générale d'Alger**, op cit, p 58.

ويُقْضى فيها حالا بدون مقابل وهي أحكام نهائية وغير قابلة للاستئناف والطعن[1]. وقد ينصرف أمر التقاضي إلى مختلف الوظائف والرتب العسكرية للآغا، آغا الخيل، وكذلك الباي وشيخ البلد كل في حدود صلاحياته. وللباي حرية التصرف المطلقة في مقاطعته، فتجده فضلا عن الحفاظ على الأمن، همه الاغتناء بتحصيل أكبر قدر من الأموال ليحصن منصبه والاستقواء بالسلطة مقابل الحيف في حق الشعب.[2]

يكفي أن نشير إلى ثلاث مسائل تميز الحكومة الجزائرية: أولا وقوع أفراد البحرية في الأسر أو الفقدان فإن الحكومة تعتبرهم في عداد الأموات (يقلدون فرسان مالطا)، فضلا تؤول جميع أملاكهم إلى الحكومة، وفي حالة تعرض مدينة الجزائر إلى القصف من أسطول معادي، فالداي يجبر أصحابها على إعادة بنائها أو يتم الحجر عليها لصالح الحكومة. وكذلك السفن المفقودة فالداي يجبر ملاكها على إعادة تصنيعها وبنفس الترسانة الحربية أو أكثر[3]. وفي المحصلة فإن الحكومة تبحث دائما عن مصدر ثرائها وقوتها في حين لا تكلف نفسها عناء سد الثغرات أو رفع العبء في فقد الأشخاص والممتلكات.

2. التماثل في الريادة الفلاحية والتجارية للجزائر (مركز تجاري عالمي) :

أجمعت كتابات هايدو ودي تاسي على الريادة الفلاحية والتجارية للجزائر في هذه الفترة وعلى محوريتها كقطب اقتصادي عالمي بما كانت تدرُّه على السوق من سلع ومنتوجات مختلفة، وتعتبر موانئها حلقة وصل للمبادلات التجارية بين الشرق والغرب على العموم.فهايدو يصف ملائمة المناخ والأرض لكل أنواع النباتات والمناسب جدا لحياة الإنسان، وتجد الأمراض والأوبئة التي تضرب المدينة على فترات متباعدة تصل إلى 10-15 سنة، تأتي من خارج المدينة عادة ما يكون الميناء منفذا لها عن طريق السفن المحمَّلة بالبضائع من مختلف أنحاء الدنيا.[4] فالأرياف المحيطة بالمدينة تحصي أكثر من عشرة ألاف حديقة بمختلف أنواع الثمار، وينابيع ماء صافية رقراقه حتى أن خيالك لا يستطيع أن يحلم أو يتصور أجمل منها تألقا وروعة. سخاء هذه الطبيعة الغنية والخصبة كبير لدرجة أن الأشجار والنباتات تحافظ على خضرتها في عز أيام الصيف، هايدو يخرج بنتيجة مفادها أنه لا توجد في العالم بأسره بلاد خصبة مثلها، وهذا الحكم لا يصدق على مدينة الجزائر وضواحيها فقط بل يشمل كل أراضي البلاد إذ تتميز بخصوبة نادرة، القدماء كتبوا عن ذلك ولا يسعنا هنا سوى تأكيد شهادتهم. هذه البلاد أرضها وبحرها يتنافسان في العطاء وبوفرة إذا اهتم المسلمون بالصيد البحري فقط لغطَّوْا وجه الأرض[5].

يلتقي دي تاسي مع هايدو في وصف الأرياف ويحصي عدد عشرين ألفا من الحدائق والأحواش خضرتها دائمة ونضرة وخصوبة لدرجة تعطي الغلال مرتين إلى ثلاث مرات في السنة، لكل أنواع الثمار، هذه الأملاك بالأرياف أو الحدائق يرسم حدودها سياج من التين الشوكي يصعب اجتيازه فضلا على خضرته الدائمة التي تضفي رونقا وجمالا للريف.[6]

---

[1] Laugier De Tassy : op cit, pp 222-223,245.
[2] Ibid, pp 231-232.
[3] Laugier De Tassy : op cit, pp 305-306.
[4] Fray Diego Haëdo : Topographie et Histoire Générale d'Alger, op cit, p 209.
[5] Ibid, pp 210-212.
[6] Laugier De Tassy : op cit, pp 199-201.

وتجد هذا التوصيف أجمعت عليه مختلف الكتابات الفرنسية فبوتان يقول "...**الجزائر تنتج تقريبا جميع أنواع الأشجار المثمرة وأكثرها أحسن مذاقا من نظيرتها الإسبانية والفرنسية**".[1] ورايناال يعيد ما أجمع عليه باقي الكُتاب سَرْد ثروات البلاد الزراعية والحيوانية، بمعطيين أساسين، الوفرة والثمن الجيد، خلقت تجارة معتبرة مع أوروبا والفرنسيين بالخصوص جعلت من مرسيليا مركزا تجاريا عالميا.[2]

في مجال التجارة يسجل هايدو أن كل الموانئ العالمية كانت تتعامل مع الجزائر، فحجم السلع وتنوعها التي كانت تحكم التجارة العالمية في ذلك الوقت كان للجزائر فيها نصيب. فالموانئ الإنجليزية (الحديد، الرصاص، النحاس، البارود، الأغطية)، الموانئ الإسبانية (الملح، نسيج، اللؤلؤ، الذهب، الفضة)، موانئ مارسيليا (أنواع من الأقمشة، القطن، الحديد والصلب، الجبس، كبريت، البندق والجوز، السكاكين الحادة، المطاط)، موانئ جنوة نابولي البندقية صقيلية (خيط الحرير، الألبسة، قطيفة مخملي، الأواني المعدنية، أغطية، خزائن، مريا، الصابون الأبيض)، موانئ القسطنطينية (مجادف السفن، السيوف الدمشقية، الأحزمة، الزرابي، فخار –برسلان–، مزهريات مزخرفة)، موانئ جربة طبرقة (التوابل، الثمار، زيت الزيتون الجيدة، المرجان)، الجزائر (القمح والشعير، الأبقار، الجمال، الأغنام، الصوف، الزيوت، السمن، الجلود المصبوغة، غنائم البحرية). لكنهم لا يقومون بتسجيل هذه المبيعات إلا في حالة ما تكون المعاملة التجارية كبيرة ولها أهمية.[3]

ويورد كذلك دي تاسي قائمة بسلع الواردات والصادرات من وإلى الجزائر، ويكون على الأولى رسوم 12.5% وعلى الثانية رسوم 2.5%، ولكن رسو السفن التجارية للمسيحيين بميناء الجزائر مكفولة للجميع، سواء كانت صديقة أو عدوة وتختلف فقط في حقوق الرسم إذ تدفع الأخير ة ضعف رسوم الأولى[4] ولم يختلف مؤرخي هذا العصر بأن البلد بدون شك هي مستودع للسلع بين افريقيا وأوروبا فيعطي رونودوت قائمة طويلة من السلع المصدرة والمستوردة نوعا وكمًّا و يصفها "..من أكثر البلدان ازدهارا في العالم[5]"

ويلتقي هايدو ودي تاسي على أن كل النقود العالمية كانت متداولة في السوق الجزائرية، وأن الحكومة الجزائرية تتحكم في سعر صرف العملات لكن بتغيرات طفيفة جدا.[6] غير أن هايدو يسجل أن قيمة الصرف فضفاضة، وتخضع لحاجة الحكومة الآنية، إذ قام جعفر باشا سنة 1580 برفع سعر صرف السلطاني ب 28.5% للمثقال الفاسي وب 16.6% للأسبر[7].

وعن دور اليهود في التجارة تتماثل كتابات كل من هايدو ودي تاسي، فلليهود اليد الطولى في هذه التجارة، ويسافرون بها إلى كل المدن الكبيرة والمعروفة، يجنون منها أرباحا طائلة خصوصا غنائم القرصنة[8] ويقر دي تاسي أن اليهود يمثلون العمود الأساسي لتجارة الجزائر، ويتقاسم يهود الجزائر شركات مع يهود ليفورن "إيطاليا" أو لمدن أخرى كانت محل إقامتهم قبل استقرارهم بالجزائر، وهكذا تجدهم

[1] Vincent-Yves Boutin : **Aperçu historique, statistique et topographique sur l'état d'Alger**, 2éme éd, Typographie de J. Pinard Imprimeur du Roi, Paris, 1830, pp 99-105.
[2] Guillaume-Thomas Raynal : op cit, 185,196.
[3] Fray Diego Haëdo : **Topographie et Histoire Générale d'Alger**, op cit, pp 90-92.
[4] Laugier De Tassy : op cit, pp 292-296.
[5] M. Renaudot : op cit, pp 156-157.
[6] Laugier De Tassy : op cit, p 250.
[7] Fray Diego Haëdo : Topographie et Histoire Générale d'Alger, op cit, p 108.
[8] Ibid, p 114.

قد تحكموا في التجارة الخارجية للجزائر، فيَبْتاعون مختلف السلع، ويقومون بتصريفها إلى كامل أوروبا، ويجنون منها أرباحا طائلة، في حين تجد المسلمين في وضع المتفرج، ولا يجرؤ أحدهم الاقتراب من أعمال كهذه، وكأنها لا تعنيهم[1]

3. التماثل والاختلاف في الصور النمطية المرسومة لمحاسن ومساوئ مسلمي الجزائر والتعامل معها :

كثيرة هي النعوت التي وصم بها الجزائريون في كتابات الأوروبيين، لكن ما مدى صدقية هذه الأوصاف في حق الجزائريين وإن سلمنا جدلا ببعضها فهل هي حكرا عليهم دون غيرهم من الأمم؟ هايدو يفرد في مؤلفه قسما لمساوئ وعيوب مسلمي الجزائر، ويجعلها على شكل وحش التنين بسبع رؤوس تعلوها قرون، ولم يتورع أن ينسبها إلى شريعة مُحَمَّد صل الله عليه وسلم وأتباعه، وهي سبع موبقات يتقنها جميع مسلمي الجزائر، على رأسها الكِبْرُ رأس كل خطيئة والنفاق، البخل والطمع، الفسوق والفجور، الشراهة والنرفزة لأتفه الأسباب، الحسد خصوصا لدى الأغنياء وأخيرا العطالة والكسل[2].

دي تاسي على النقيض من ذلك، إذ يعتبر أن الأوروبيين عموما ارتسمت لديهم صورة نمطية عن الجزائريين غلبت على فكرهم، تصفهم بالهمجيين "les Brutes" وينعتونهم بكل بساطة بالوحوش"Les Bêtes" ، فلا منطق لهم، ولا ضمير جمعي يحكمهم، ولا يقدرون على فعل شيء جيد، يكفي أن تذكر فقط اسم تركي، عربي، مور، مسلم لتوحي بكل النعوت التي ذكرناها سابقا[3].لكنه يفترض أن الأوروبيين لو خالطوهم وانسجموا معهم دون الانحياز الممجوج والهواجس الراسخة في أذهانهم، لوجدوهم لا يختلفون عن شعوب العالم. ليخلص إلى وجوب الإقرار أن معرفة الإنسان لدى جميع الأمم مرتبطة ببيئته وأن كل ما نسميه فضيلة ورذيلة تحكمها التربية، القانون، وعادات وأعراف مجبولة عليها الناس، فما تجده رذيلة في مجتمع قد لا يكون لدى الآخر (مثال اللباس غير محتشم لدى الهنود، الرقص المختلط، شرب الخمر، ويتعدى ذلك إلى الشعائر الدينية وإلى أبسط الأشياء من المأكولات والملبوسات).[4]

لكن كثيرا من الكتاب الفرنسيين لم يجد حرجا في إعادة استنساخ هذه المساوئ نصا وحرفا عن هايدو كما فعل رونودوت وأضرابه[5].وعلى العموم هذه الرذائل التي تنسب للجزائريين والعيوب التي تعزى إلى حكوماتهم تشترك فيها حتى الأمم الأكثر تحضرا ورقيا. اغتصاب السلطة بالقوة والمحافظة على الحكم بالاستبداد، لكن كم في أوروبا من امبراطورية ومملكة وجمهورية قامت بنفس الأساليب. [6] نقول عن العرب والمور قطاع طرق ويستولون على السفن فهم يتبعون ما سارت عليه جميع الشعوب، وكم من سفن نُهِبت وسُلِبت عن آخرها على سواحلنا بصقلية، سردينيا، كورسيكا، هولندا...لقوى مسيحية ولم تسلم حتى السفن الصديقة.[7] وعن الاغتيالات وصراعات العصب وتعسف في استعمال السلطة، فالتاريخ القديم والحديث مليء بالأمثلة عن مجازر طالت ملوكا، أمراء، وزراء... وبصور أبشع في

[1] Laugier De Tassy : op cit, p 76.
[2] Fray Diego Haëdo : Topographie et Histoire Générale d'Alger, op cit, pp 168-180.
[3] Laugier De Tassy : op cit, pp 3-4.
[4] Ibid, p 4.
[5] M. Renaudot : op cit, p 44.
[6] Laugier De Tassy : op cit, p 310.
[7] Ibid, p 311.

أوروبا وغيرها. ليصل دي تاسي إلى نتيجة أن الشعب المسيحي المتنور بالإنجيل يضع نفسه فوق هذه الشعوب البربرية إلا أنه لا يختلف عنها[1].

والغريب أن هايدو يستدرك بعض الخصال الحميدة لمسلمي الجزائر، لكن يراها من زاوية مغايرة، ويعطيها تشبيه الأفعى السامة التي تنفع بتركيب ترياق وأن كثيرا من السموم يُصنع منها دواء جيد. من هذه الخصال: لا ينسبون للذات الإلهية أي مكروه ولا يطعنون في دينهم كما يفعل النصارى، هوايتهم الشطرنج لكن القمار محرم، نظافتهم المعهودة سواء كانوا أغنياء أو فقراء لدرجة الإدمان على نظافة الجسم والثياب، التبكير بتزويج أبنائهم، الشيوخ والعجائز يعيشون بقية حياتهم في التزام واضح بشعائر الإسلام والكف عن الموبقات مثل شرب الخمر[2].وهذه الخصال أغلبها أثبتها دي تاسي، بل يثني على الجزائريين كونهم لا يعطون للعاهات الخِلْقِية أي شيء معيب سواء كانت طبيعية أو لحادث ما، ولا يجد أحدهم حرجا في أن يُكنَّى بها مثل "**الأعور، الأحدب، الأعرج، الأبتر**[3]."

تماثلت أراء هايدو ودي تاسي حول المرأة فيجعل الأول من مهر المرأة الذي يعطيه الرجل لزوجته بأنه يشتريها أي يتملكها كأي سلعة، والنساء المسلمات لا يشغلن وقتهن في الغالب إلا بسبعة أمور: الاستحمام والتطيب، الزيارات المتبادلة بينهن بدون انقطاع، الاجتماع لكل مناسبة للمرح والترويح طيلة السنة بإحدى الحدائق الخاصة خصوصا لميسوري الحال، زيارة الأولياء الصالحين للتبرك، التزامهن بزيارة قبور موتاهن، اللجوء إلى السحر والشعوذة، حضور حفلات الزفاف وما أكثرها على مدار السنة، ليخلص أنهن يعشن في بطالة وكسل عظيم[4]. وإن كان هايدو عمَّم هذا الأمر على كل نساء الجزائر، لكن دي تاسي خص به نساء الأغنياء وميسوري الحال، هن من يعشن في كسل تقليدي ومتعتهن في قراءة الكف والحظوظ، غير أنه يخص عموم النساء بالوظيفة البيولوجية الإنجاب والمتعة فقط، وإذا فقدن إحدى هاتين الصفتين لكبر السن مثلا فهي للإهمال أو الطلاق أقرب، وليس لهن أي دخل في الشأن العام، والرجال عوَّدوهن على ذلك[5].

وانجر وراءهم كتاب آخرون أمثال دارفيو إذ يقول في المرأة "...**غباء، عطالة، ليس لها وظيفة إلا رغبة في إنجاب الأطفال**"[6] في حين يذكرها بوتان "...**وضعية المرأة على هامش المجتمع**"[7] لكننا نجد بوتان يتناقض مع نفسه حين يسجل على نساء البلد"...**يحِكن بأيديهن كل خيط لجمل المنسوجات من برانس، الحايك، الزرابي**..."[8]

أمَّاعن فئة المرابطين فلها تبجيل واحترام خاص، وإن كان هايدو يخلط بين جميع رجال الدين من أئمة ومعلمي القرآن وعلماء الشريعة وطلبة العلم ويدخلهم في زمرة المرابطين، يقصدهم الناس لأمور دينهم ودنياهم سواء لأداء العبادات، لطلب العلم، التقاضي أو

---

[1] Laugier De Tassy : op cit p 317.
[2] Fray Diego Haëdo : **Topographie et Histoire Générale d'Alger**, op cit, pp 182-185.
[3] Laugier De Tassy : op cit, pp 61, 167, 346.
[4] Fray Diego Haëdo Topographie et Histoire Générale d'Alger, op cit, pp 116,132-137.
[5] Laugier De Tassy : op cit, pp 61,96.
[6] Laurent d'Arvieux : **Mémoires du chevalier d'Arvieux**, envoyé extraordinaire du Roy à la Porte, consul d'Alep, d'Alger, de Tripoli et autres Échelles du Levant : contenant ses voyages à Constantinople, dans l'Asie, la Syrie, la Palestine, l'Égypte et la Barbarie, Tome 5, recueillis de ses Mémoires originaux et mis en ordre par le R. P. Jean-Baptiste Labat, Charles-Jean-Baptiste Libraire, Paris, 1735, p 287.
[7] Vincent-Yves Boutin : op cit, p146.
[8] Ibid, p 176.

الصلح، لكنه يقدح في المرابطين وأهل العلم بممارسة الشعوذة والسحر وتفسير الأحلام، وكتابة التمائم والتعاويذ للمرضى والأطفال والنساء، ويجعل فيهم أخس خصلة من قوم لوط، ويقول إن هذه الرذيلة تمارس في الأسواق والشوارع الكبرى وعلى مرأى من الجميع. [1] ويتوافق معه دي تاسي أن الشعائر الدينية تحكمها كثير من الخرافات الناتجة عن جهل وعادات مستحكمة تناقلها المرابطون بطريقة تقليدية دون الاحتكاك بعلماء المدن الأكثر تفقها، لكن دي تاسي لا يسجل رذيلة قوم لوط إلا على العساكر الأتراك ولا يُعاقَب عليها كونَ أغلبِهم يبقوا بلا زواج[2].

أما عن الشِّدة وبعض التعالي إتجاه الأجنبي فالجزائريون تعوَّدوا منذ نعومة أظافرهم على وجود عبيد لجميع الأمم في بيوتهم فهم يعتقدون أن جميع الشعوب ما هي إلا خاضعة لهم مما يفسر بعض الازدراء.[3] وليس كما ذكر هايدو بكرههم للمسيحي لذاته فقط. على العموم هناك حرية دينية لكل الأجانب سواء كانوا أحرارا أو عبيدا وكل الديانات محمية. والجزائريون يحبون كثيرا العبيد المتدينين فيسمحون لهم بإقامة شعائرهم وزيارة الكنيسة في المناسبات.[4] فيما يخص العبيد فإن الجزائريين ساروا على تقاليد موغلة في القدم سارت عليها عديد من الأمم، غير أن المعاملة السيئة لم تكن من شِيَمِهم كما يعتقد البعض، ولا إجبار الأسرى على اعتناق الإسلام فهي مغلوطة جدا. مع ذلك لا وجود لوجه المقارنة للمعاملة السيئة على يد الإسبان التي عومِل بها الجزائريون، والكاتب نفسه عاش مرارتها حين أسر سنة 1706 لما كانت وهران في حوزة الإسبان، ليقر أنه يفضل عشر سنوات رق في الجزائر على سنة سجن لدى الإسبان[5].

وأخيرا يُنكر دي تاسي على هايدو حُبَّهم للدماء والتلذذ بمعاقبة الناس، إلى درجة يجد أن الأمر مستغرب ألا يهتم السكان بسَوْق مجرم إلى منصة الإعدام، إذ يتم الأمر دون جَلَبَة ولا هتافات سِوى من بعض الأطفال أو من رَمَتْهم الصدفة هناك. في حين تجد لدى الأمم المسيحية تهافت الجماهير في الحصول على الأماكن الأولى ومتعة مشاهدة تنفيذ حكم الإعدام.[6] ليختم بقوله: للقارئ واسع النظر وليتحرر من الأحكام المسبقة، وأن نتفق أن قلب الإنسان يبقى هو نفسه مهما اختلفت الأماكن، تربية الناس، العلم أو الجهالة، حتى الخرافة التي تحكمهم. فإن قلبه لا يفقد بوصلته الأخلاقية سواء في وصف الناس أو الحكم عليهم[7].

ما يسجل لهايدو أنه أسس لإيديولوجية مبنية على الحط من قيمة الإنسان المسلم العربي على العموم والجزائري بالخصوص بوصفه بأقذع الأوصاف ظلت إلى عهد الاحتلال الحديث متلازمة له في أغلب كتاباتهم مثل الوحشية، لا رحمة، عدم الإنسانية، ليعطي مبررا يستلزم استعمال القوة المفرطة ضده لحتمية إخضاعه.في حين كان دي تاسي أكثر إعتدالا ويحث على مزيد من التعلم في كل المواضيع المختلفة ولا نبقى حبيسي الأحكام المسبقة وجهلنا بما يجري هناك، وبالضرورة سنجد في سيرتهم وتسييرهم سيئ وجيّد ويجري عليهم ما يجري على جميع الدول.

---

[1] Fray Diego Haëdo : **Topographie et Histoire Générale d'Alger**, op cit, pp 98-102,107.
[2] Laugier De Tassy : op cit, pp 62,80.
[3] Ibid, p 101.
[4] Laugier De Tassy : op cit, p 95.
[5] Ibid, pp 328-330.
[6] Ibid, p 345.
[7] Ibid, p 347.

خاتمة:

كتابات هايدو ودي تاسي سواء اتفقت أو اختلفت فإنها حفظت لنا ثراء معرفيا عن الجزائر في الفترة العثمانية لا يمكن لأي دارس تجاوزها. وتماثلت هذه الكتابات في توصيف الأرياف وحدائقها التي تتميز بخصوبتها وإنتاجها الغزير، والأرقام التجارية المغرية خصوصا ما تدرُّه البلد من انتاج القمح علاوة عن ثروة حيوانية كبيرة جعلت من هذا البلد مصدرا لثروات فلاحية كبيرة، لكن هايدو مال إلى ازدواجية في التوصيف فيجعل من البيئة والمناخ الملائم لجميع المنتوجات الزراعية والفلاحية لكنه بالمقابل لم ينتج إلا إنسانا متوحشا.

ما يميّز كتابات الأوروبيين إدخال كثير من "historiettes" وهي الحكايات والنوادر القصصية الخاصة والعامة، لا يمكن التثبُّت من وقوعها تصديقا أو تكذيبا، مثل (قيام أحد الدراويش بضرب البحر بعصاه فارتجَّ البحر في حملة شارلكان، علاقة عروج بزوجة سليم التومي.(قلَّلت هذه الكتابات من أهمية العرب خصوصا والسكان عموما في تولي شؤونهم السياسية بنفسهم لعدة اعتبارات منها طبيعة المجتمع نفسه، وإن كان دينه الإسلام فتحكمه كثير من الخرافات والأساطير الناتجة عن جهل وعادات مستحكمة تناقلها المرابطون، وكذلك كونه منغلق على بيئته القبلية التي ترسم حدود مجاله الحيوي. ولم تذكر هذه الكتابات جميعها ولا شخصية من السكان عدا الحكام سواء اعتبارية أو علمية أو حتى من الأعيان لا تلميحا ولا تصريحا أو حتى تعريضا بنقل إحدى المرويات الشفوية عنه.

كتابات هايدو وإن حاولت إيجاد مبرر لعذابات الأسرى المسيحيين بالجزائر، غير أن لدى دي تاسي اعتدلت مع الحقيقة على الأقل أنها لم تكن بحجم وبشاعة الأسر لدى الإسبان مع أنهم يأسرون حتى أبناء ملتهم، وإن كان فعل الأسر والاسترقاق كظاهرة مارسته عدة شعوب قديما وحديثا اختلفت فقط في الرحمة أو قسوة معاملتهم، وعلى العموم لم تكن الجزائر بتلك الوحشية التي سجلها هايدو.

كثير من المساوئ التي نعث بها هايدو الجزائريين، دحضها دي تاسي كإجبار المسيحيين على اعتناق الإسلام، وأغلبها حَسَنها وجَيِّدها تشترك فيه جميع الأمم وليس حكرا على الجزائريين فقط.

بيبليوغرافيا:

1. سعد الله ، أبو القاسم : **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر** ، المجلد 1 ، عالم المعرفة ، الجزائر ، 2016.
2. الزبيري ، مُحَمَّد العربي : **مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث** ، دار الحكم، الجزائر ، 2014.
3. Boutin, V.-Y : **Aperçu Historique Statistique et Topographique sur l'état d'Alger**, Typographie de J Pinard Imprimeur du Roi, Paris, 1830.
4. D'Arvieux, L : **Mémoires du chevalier d'Arvieux** , (Vol. 5), Charles-Jean-Baptiste Libraire , Paris, 1735.
5. De Tassy, L : **Histoire du Royaume d'Alger** , Henri du Sauzet , Amsterdam, 1724
6. Haëdo, F : **Topographie et Histoire Générale d'Alger**. (A. Berbrugger, & Monnereau, Trads.), Adolphe Jourdan , Alger, 1870.
7. Haëdo, F : **Histoire des rois d'Alger** , (H.-D. De Grammont, Trad.), Adolphe Jourdan , Alger, 1881
8. Haëdo, F : **De la captivité à Alger** , (Moliner-Violle, Trad.) , Typographie Adolphe Jourdan , Alger , 1911.
9. Raynal, G.-T : **Histoire philosophique et politique des établissement et du commerce des Européens dans l''Afrique**, Amable coste Libraire-éditeur, paris, 1826.
10. Renaudot, M : **Tableau du royaume de la ville d'Alger et de ses environs** , Librairie Universelle de P. Mongie Ainé, Paris, 1830.
11. Venture de Paradis, J.-M : **Alger au XVIIIe siècle** ,: Typographie Adolphe Jourdan , Alger, 1898.